في البداية لم يكن الأمر كذلك!

تدوينات لمداخلتي دافيدي بروسبيري وخوليان كارّون في لقاء بداية السنة للبالغين والطلبة الجامعيّين من أعضاء شراكة وتحرّر
استاد "ميديولانوم فوروم" بمدينة أسّاغو (ميلانو) في 30 أيلول/سبتمبر 2017

خوليان كارّون
فلنطلب ذلك الفقر الذي جعلتنا شخصيّة "المجهول الاسم" (l'Innominato) للروائيّ أليساندرو مانزوني نتمنّاه مرّات عديدة هذا العام، لأنّنا من دونه لا نملك ذلك الاستعداد اللازم للبدء، وكلّ شيء يصبح عديم الجدوى. دعونا نطلبه مرنّمين للروح القدس.

هلمَّ أيّها الروح القدس
The things that I see
Negra sombra

دافيدي بروسبيري
أهلا وسهلا بكم. نرحّب بداية بجميع الحاضرين وبالمدن المتواصلة معنا في إيطاليا وخارجها، من أجل هذا اللقاء الذي نريد أن نبدأ به العام. أودّ أن أبدأ بإعادة طرح السؤال الذي تناولناه هذا الصيف خلال رياضة الأخويّة: "هل الخلاص لا يزال مثيرًا للاهتمام بالنسبة إليّ؟". لقد أصبحت هذه الكلمة، التي كثيرًا ما نسيناها إزاء الصعوبات وأمام التناقضات ومتاعب العيش، فجأة ومن جديد مألوفة بالنسبة لنا. فكلمة "خلاص" تحتوي على كلّ معنى حدودنا، ومعنى شرّنا، ولنقل على معنى عدمنا أيضًا، وذلك رغم تطلّعنا إلى تحقيق الخير والعظمة التي يشعر قلبُنا بأنّه موجود لأجله. ومع ذلك نرى أنّ الخلاص يبدو بعيد المنال، لأنّنا نشعر بعدم استحقاقنا له (على الأقلّ أولئك الذين لديهم الحدّ الأدنى من الوعي الذاتيّ قد فكّروا بذلك) ويبدو لنا أنّ كلّ جهودنا ليست كافية لاستحقاقه من جديد. غير أنّ فرضيّة يسوع أمام زاكّا، كما قال كارّون في الرياضة الروحيّة، يقلب المسألة تمامًا. يقول إنجيل لوقا: "إنّ الخلاص دخل اليوم هذا البيت" (راجع لوقا 19، 1–10). الخلاص هو المسيح، شخصه، ونحن قد اعترضتنا نظرته، وغيّرتنا. إنّها لم تغيّر بالضرورة على الفور اهتماماتنا، ولم توفّر لنا في الحال القدرة على عدم ارتكاب الأخطاء أو حتّى على تصحيح أنفسنا. إنّ ما يتغيّر هو قبل كلّ شيء أنّنا أدركنا حضوره، بفضل جذبٍ اقتحم حياتنا وجذبنا إليه. إنّ سخاء الشباب الذين أمضوا هذا الصيف في لقاء ريميني ساعاتٍ تحت الشمس الحارقة من أجل تأمين الخدمة في مواقف السيارات أو أولئك الذين كانوا يهتمّون بالمحافظة على نظافة القاعات والمعارض (ودفعوا المال للقيام بذلك!)، هذا السخاء الذي صدم أيّ شخص، لا نفهمه إذا ما اعتقدنا أنّه مجرّد ثمرة جهد من الكرم. هذا السخاء غير ممكن إلا إذا كنتَ راضيًا بالفعل عمّا تلقّيته. والامتنان هو ما رأيته يتألّق في عيون هؤلاء الشباب، كما نراه في الكثير من البالغين العاملين في المجتمع. ونحن نراه يتألّق لأنّه تعبيرٌ عن حدثٍ راهن، ربّما يحدث الآن للمرّة الأولى في حياة الشخص أو إنّه يحدث مرّة أخرى بعد سنوات عديدة. وأنا رأيته خلال تجوّلي في مراكز عطلة عديدة وفي مبادرات كثيرة قمنا بها هذا الصيف.
أودّ أن أروي حادثة شخصيّة وقعت لي قبل بعض الوقت. كان ذلك في أحد تلك الأيّام (أعتقد أنّه يحدث لأيّ شخص) التي تقول في نهايتها: "لم أقم اليوم بأيّ أمر مُجدٍ". ولكنّي، عكس مرّاتٍ أخرى، وجدت نفسي راكعًا

أقول: "يا ربّ، ليس لديّ ما أعطيك إيّاه اليوم، لكنّني ههنا". وهذا الأمر غيّر، غيّر كلّ شيء في نفسي، "أنتَ يا ربّ موجود، ولهذا فأنا موجود، ولهذا يمكنني غدًا أن آمل، حتّى وإن لم يكن لديّ اليوم ما أعطيك إيّاه". أعتقد أنّ من مكانة الإنسان أن نرغب بأن تكون حياتنا مفيدة. كتب دون جوسّاني عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره يقول: "لا أريد أن أعيش من دون جدوى. هذا هو شغلي الشاغل" (لويجي جوسّاني، رسائل إيمان وصداقة لأنجيلو مايو *Lettere di fede e di amicizia ad Angelo Majo*، دار نشر سان باولو، تشينيزيلو بالسامو، 2007، ص. 33). إنّه لمن التفاهة والغرابة أن أعتقد أنّ قيمة الحياة تكمن فقط في ما يمكن أن تعطيه لي الحياة. فسِعة قلبي (سعة قلب كلّ إنسان) ترغب في أن يكون ما أنا عليه مفيدًا للجميع، وبالتالي للعالم. بدلًا من ذلك، كثيرًا ما نميل إلى تحديد فائدة حياتنا فقط في ما يمكن أن يكون لدينا أو في ما نحن قادرون على القيام به. لذلك نفكّر قائلين: "لم أقم اليوم بأيّ أمر مُجدٍ، وهكذا ذهب نهاري سدى." ولكن قد يحدث أن نلاحظ، وهذا ما حدث لي، أنّ هناك فائدة أكبر: فائدة الارتباط dipendenza بالله. بمعنى أنّ فائدة الحياة هي أن تبادل "من" يحبّك الحبّ، أن تفعل شيئًا يكون مفيدًا لـ "من" يريدك. ربّما أن تقبل ببساطة أن تكون، أن ترتبط بذاك الذي يجعلك تكون الآن، كما حدث هذا الصيف في حادثة تشارلي غارد الدراميّة، التي أثارت مشاعرنا. أنا أرى أنّ ما يحدّد فائدة الحياة إنّما يكمن في ما يراه فيك "آخرُ" يجعلك تكون، وليس ما تريده أنت من نفسك. ومن ثمّ تصبح الحياة مفيدة عندما تصبح طاعة: وهي في نهاية المطاف انفتاحٌ على حضور المسيح، واستسلامٌ لتلك العظمة التي يريد "آخرُ" أن ينجزها فيك ومعك، من أجل العالم، ربّما بطريقة تختلف عمّا كنت ستفعله أنت. نحن نعيش لكي يُعترَف بالمسيح في كلّ مكان، نعيش من أجل المجد البشريّ للمسيح.
لذلك أودّ أن أسألك: كيف يمكننا أن نساعد أنفسنا على عيش وعي هذا الارتباط؟

كارّون
من منّا لا يريد أن يفاجئه أمرٌ يجعل كلّ شيء يغنّي، كما تقول كلمات *Negra sombra*؟ عندما يحدث مثل هذا الأمر، فمن السهل أن ندركه، إذ يتطابق مع تطلّعات قلوبنا. إنّنا ندركه على الفور لأنّه يجعل كلّ شيء في الحياة يغنّي. "إذا غنّوا غنّيتَ، وإذا بكوا بكيتَ، أنتَ الليل والفجر. أنتَ في كلّ شيء، وأنتَ كلّ شيء بالنسبة لي، وفيَّ [...] تسكن" (روساليا دي كاسترو– خوان كابون مونتيس، *Negra sombra*، في كتاب Canti، ص. 292). إنّنا نرتبط في كلّ شيء بذلك الـ "أنتَ".
إنّنا نكتشف حقًّا ما نتوقّعه عندما نتعرّف "إليه"، في الأحداث التي يأتي من خلالها للقائنا، ولقدرته على جعل كلّ ما نعيشه ونلمسه ينبض. لا حاجة ههنا إلى "معدّات" معيّنة، حيث يكفي أن يحدث ويطرح نفسه على قلوبنا.
يكفي أن نرى ما يفعله الله لكي نبكي من التأثّر، كما تقول كلمات *The things that I see* (كتاب Canti، مرجع مذكور، ص. 344).
عندما يعيش المرء هذه الخبرة الأوليّة، فلا يمكنه إلا أن يتمنّى ألا يتركه ذلك الـ "أنتَ" أبدًا: "لا تتركني أبدًا، يا إيّها الظلّ الذي يفاجئني دومًا"، تقول نهاية *Negra sombra*. إنّ الرغبة في الارتباط بذلك الحضور يجعل كلّ شيء مختلفًا. كم نودّ أن يفاجئنا باستمرار حدثٌ يجدّد كلّ شيء! عندها سنكتشف بشكل أكمل فأكمل أنّه إذا غنّى شيءٌ ما فلأنّك "أنت" تجعله يغنّي، وإذا ما نبض فلأنّك "أنت" تجعله ينبض، لأنّك في كلّ شيء، لأنّك تسكن فيَّ.

عندما لا تهيمن مفاجأةُ هذا الحدث، فما الذي يطغو؟

1. الشكليّة

من السهل، كما قلنا لتوّنا، أن نحدّد حدثًا يتطابق والحياة عندما يحدث؛ كما أنّه من السهل أن ندرك متى لا يحدث

ذلك، لأنّ الغناء يتلاشى من أيّامنا، ويصبح كلّ شيء عاديًّا، شكليًّا. ويختفي الفرح. إنّ ذلك لمن الوضوح لدرجة أنّنا لا نستطيع تجنّب إدراكه.
"أشعر بأنّني قد وصلت إلى مفترق أساسيّ في حياتي، إلى إحدى تلك الخطوات الحاسمة التي لا يمكنك إرجاؤها". إنّها كلمات صديق كنت قد قرأتها في مدرسة الجماعة في شهر حزيران/يونيو الماضي، ورافقتني طوال الصيف، لأنّها تحدّد موضع العقبة. ويتابع في رسالته قائلا (سنتناول بعض المقاطع فقط): "إيماني شكليّ، وحياتي تحاسب في الأساس على الأخلاق (ما هي الأشياء التي "لا يمكنك أن تقوم بها" أو على العكس، "لا يمكنك ألا تقوم بها": حتى المبادرات الكبرى مثل جمع الأغذية، وجمع الأدوية، وخيام الميلاد، والأعمال الخيريّة، والصندوق المشترك، والرياضات الروحيّة، ومدرسة الجماعة، وما إلى ذلك).– [وهذا يعني أنّه يشارك في العديد من النشاطات والمبادرات]. لكنّ الاختبار (ذلك الاختبار نفسه دائمًا، والذي لا يرحم)، اختبار الفرح، يحطّمني، فهو غائب! هناك، في معظم الأوقات، تعاطٍ مملّ، متباهٍ، أنانيّ. ولم أعد قادرًا على التحمّل. أودّ أن أكون مبتهجًا، لكنّني سرعان ما أجد نفسي في الروتين". عند هذه النقطة، يفهم صديقنا إلى أيّ مدى ابتعد عن الارتباط الذي يخلقنا جميعًا: "المسيح معزول حقًّا عن قلبي. لا يمكنني ألا أبالي بالخلاص، لكنّني أراه دائمًا وفق نموذجي أنا. وبعد سنواتٍ عديدة قضيتها في الحركة لا أستطيع أن أصدّق بأنّني وصلت إلى هذه الدرجة من الانحدار. إنّ الفرح موجود في مكان آخر دائمًا!".

تساعدنا هذه الرسالة على إدراك ما يقوله لنا دون جوسّاني (وهذا ما ذكرناه في رياضة الأخويّة): "أيّ تعبير يصدر عن حركة مثل حركتنا، إن لم يستدعِ من قلب الأحداث الملموسة التي نعيشها ذكرى حضور المسيح [أي إن لم يزد من وعي الارتباط به]، فهو باطل. لا بل إنّه يزيد من سوء الحالة الإنسانيّة، لأنّه يعزّز الشكليّة والأخلاقيّة. ويحطّ من قدر الحدث بيننا – ذاك الحدث الذي يجب أن نتمسّك به باختلاج في أعيننا وقلوبنا كمعيار للسلوك المتبادل بيننا – فيحوّله إلى ملجإ سوسيولوجيّ أو مكانة اجتماعيّة" (لويجي جوسّاني، "الملحق"، البحث عن الوجه الإنسانيّ *Alla ricerca del volto umano*، دار نشر ياكا بوك، ميلانو 1984، ص. 90). وإن كنّا لا نعيش كلّ ما يُعطى لنا كصرخة تذكّرنا بذكرى المسيح، فلا شيء ممّا نقوم به سوف يكون قادرًا على إرضائنا وإعطائنا الفرح الذي نتمنّاه بالطبع. إنّ حدث الحياة الذي أصابنا سينحطّ إلى مجرّد "أشياء يتعيّن القيام بها"، سوف تكون أشبه برشوة ندفعها للانتماء إلى رفقتنا.
ليس من المستغرب أن يحذّرنا دون جوسّاني من الشكليّة التي نشارك فيها بالمبادرات المقترحة علينا، ويصوّرها بهذه الكلمات: "لن نكون على ما يرام إذا ما شاركنا بمدرسة الجماعة [...] [أو] بالقدّاس الإلهيّ [...]، لن نكون على ما يرام إذا ما وزّعنا النشرات أو علّقنا اللافتات الكبيرة. فقد تكون مجرّد إجراء شكليّ يدفع به المرء ضريبة الواقع الاجتماعيّ الذي ينتمي إليه. ولكن متى يصبح كلّ ذلك خبرة؟ عندما يقول لك شيئًا ويحرّك [...] فيك شيئًا" (لويجي جوسّاني، رجال بلا وطن 1983–1982 (*Uomini senza patria*)، دار نشر بور، ميلانو 2008، ص. 194).
"كيف لي أن أتخلّص من هذا؟" يتساءل صديقنا. لقد وفّرت له تجربته بعض الاقتراحات من خلال الأعراض التي ظهرت (الشكليّة، الروتين، صرخة "لم أعد قادرًا على التحمّل")، لكنّ لديه نموذجه للخلاص وليس مستعدًّا لتغييره: "لا يقولنَّ لي أحدٌ إنّ القلق الذي ينتابني "حسنٌ" لأنّني لن أفهم. لا يقولنَّ لي أحدٌ إنّ صرختي (المحتملة) [...] ذات فائدة، وإنّ المسيح هو هناك أيضًا، بانتظاري، وإنّ كلّ ما أعيشه هو لصالحي! هذا كلّه أفهمه على مستوى شكليّ فحسب، لا على مستوى وجوديّ. لقد عدتُ بعد فترة طويلة إلى نقطة البداية".
ولكن كيف بإمكان صديقنا أن يفهم شيئًا على المستوى الوجوديّ إذا ما رفض أن يتبع الطريق الوحيد الذي يقوده إلى الفهم؟
ما هو هذا الطريق؟

2. طريق الخبرة والتاريخ

لفهم أمر على المستوى الوجوديّ، لا بدّ من الانتباه للخبرة التي نقوم بها، "للأعراض" التي تقدّمها لنا باستمرار. والطريقة التي يُفهمنا بها السرّ الأشياءَ هي دائمًا التاريخ. هذا ما يذكّرنا به دون جوسّاني بلا كلل، حيث يقول: "التاريخ هو كلّ شيء بالنسبة لي؛ لقد تعلّمت من التاريخ" (نقلا عن ألبيرتو سافورانا، حياة دون جوسّاني *Vita di don Giussani*، دار نشر بور، ميلانو 2014، ص. VIII).

ولكن قد تصدر عنّا مقاومة شديدة لتحدّي الواقع. كما لو أنّنا لم نتمكّن من معرفة ما تشير إليه هذه الأعراض، كما لو أنّنا لم نفهم سببها. لكنّها مثل الصرخة التي يطلقها الله، المليء بالحنان تجاهنا، من أحشائنا. كما لو كان الله يقول لنا: "ألا تدرك حاجتك إليّ من خلال الأعراض التي تشعر بها؟ إنّك لا تدرك لأنّ شخصًا آخر يقوله لك، أو لأنّني أرسل إليك ملاكًا، بل لتلك الأعراض!". وذلك أيضًا لأنّه، إن لم يكن الناس على استعداد للاعتراف بما يظهر من خبرتهم، وإن لم يتنبهوا للأعراض ويلاحقوها، "فلا إن قام واحدٌ من الأموات يصدّقون"، كما يقول يسوع في سياق معيّن (راجع لوقا 16، 19–31).

ولكن عندما يكون المرء على استعداد للاعتراف بالعارض كأمر إيجابيّ، أي كنداء آتٍ من السرّ، فانظروا ماذا يحدث. لقد روت إحدى صديقاتنا، وتدعى ميراي، إنّها انتقصت في مرحلة ما من حياتها العائليّة، ودون أن تشعر ذلك، من أصل حبّها، في بداية علاقتها بالرجل الذي تزوّجته. وقد أصبح هذا بالتحديد تحدّيًا لها: لقد حدث شيءٌ، والسرّ يستخدمه ليستنهضها، وليجعلها مدركة لما انتقصت منه. لم تحصل أزمة زوجيّة واضحة، فقد تابعت القيام بما كانت تقوم به من قبل، لكنّها فقدت الأصل. فهي تضيف: "نحن معًا، ونقوم بالأعمال معًا، فنهتمّ برعاية الأطفال، وبالمنزل، ونشعر بتشجيع عائلتينا، ويستقبل منزلنا أيضًا في نهاية كلّ أسبوع بعض أطفال الشوارع الذين نرافقهم، وكلّ منّا يقوم بعمله بشكل جيّد، كما نتعاون في العمل، ولكن [ها هي النقطة] لقد انفصل وابتعد أحدنا عن الآخر. إنّ الرغبة التي أعرب عنها شخصٌ [كان مهتمًّا بها] جعلني أدرك أنّ [المسألة] ليست نشوء مشقّة وابتعاد بيني وبين زوجي، بقدر ما هي أنّ المسيح لم يعُد نقطة الانطلاق في حياتنا اليوميّة. [هاكم كيف نفهم الأشياء بشكل وجوديّ]. إنّ ما كان يضطرم فينا، وما جعلنا نسير عكس التيّار إزاء واقع الزواج في ثقافتنا، إنّما كانت النار الآتية من المسيح. لقد دفعتنا هذه النار إلى حياة زوجيّة جميلة لدرجة أنّنا كنّا نشعر بأنّنا فريدان في العالم، ولكن لم يبق لنا اليوم سوى الجمر الذي قد يصبح يومًا ما رمادًا ... إنّ ما نشعر به الآن هو ثقل حياتنا اليوميّة". من السهل أن ندرك عندما لا تعود النار الآتية من المسيح تضطرم، فثقل الحياة اليوميّة يجعل الأمر واضحًا، وتكفّ الحياة عن الغناء.

عند هذه النقطة، نرى ما إذا كان الشخص مستعدًّا حقًّا للتعلّم ممّا يحدث، أي أن يدرك عارضًا ويعترف به كفرصة. لو وجد أحدٌ نفسه في وضعٍ كالذي وصفته ميراي لكان اشتكي قائلا: "كيف يكون ذلك، ألا أزال في هذه الحالة؟ ألا أزال في هذه الحالة بعد سنوات عديدة؟". إمّا هي فلا، فهي كانت سعيدة – كما تكتب– "بمعرفة كيف أنّ الربّ في عبقريّته قد استخدم لقاءً معيّنًا كي يعيدنا إلى أنفسنا"، أي إنّه جاء من جديد لرعايتها ورعاية زوجها. وكذلك الزوج الذي اعترف، أمام كلام زوجته، بالشيء نفسه قائلا لها: "لقد نما حبّنا كشجرةٍ تأوي إليها الطيور للراحة، ويستظلّ بها الناس [منزلهما مفتوح دائمًا] ... أنتِ على حقّ! إذا توقّفنا عن التغذية عند المصدر، فإنّنا سنجفّ. ولا شيء ممّا نراه سيكون ممكنًا!".

من لا يريد أن يكون لديه أصدقاء مثلهما؟ "في تواضعهم هناك بذرة عالم جديد"، قال البابا في الآونة الأخيرة، مختتمًا كلمته بدعوة: "عاشِر الناس الذين حافظوا على قلوبهم كقلوب الأطفال" (البابا فرنسيس، المقابلة العامّة، 20 سبتمبر 2017).

المسألة إذن هي ما إذا كنّا على استعداد للطريقة التي "يقتحم فيها الله أبوابنا" من خلال الواقع: قد يكون عبر نشوء مشكلة عاطفيّة، كما رأينا، أو أيّ شيء آخر. نحن لا نعرف الطريقة التي سيدعونا بها السرّ، وكيف سوف يقرّر اقتحام بابنا، ويستعيدنا، فيمنعنا من أن نمضي قدمًا في القيام بأعمال من غير أن تعني لنا شيئًا. إنّه لأمر مذهل! فنحن نعتقد أنّنا نعرف كيف يجب أن تسير الأمور، ونقوم بها، فلا يحدث شيء، ويصبح كلّ شيء قاحلا. وعندها يأخذ الربّ مبادرة جريئة لإخراجنا من الشكليّة التي نختنق فيها.
"التاريخ هو كلّ شيء بالنسبة لي؛ لقد تعلّمت من التاريخ". نحن نفهم بشكل أفضل لأنّ دون جوسّاني لم يكلّ أبدًا من ترداد هذا القول علينا.
فما هو الغرض من أخذ الأعراض على محمل الجدّ؟

3. استعادة البداية

إنّ ما يحدث لنا، و"الأعراض" التي نشعر بها في داخلنا إنّما هي لمساعدتنا على استعادة البداية، الأصل، والنقاء الأصليّ لخبرةٍ ما، ما استحوذ علينا وجذبنا. لقد بيّنت لنا ميراي بشكلٍ واضح كيف أنّها أكتشفت، من خلالها، أنّ المسيح لم يعُد نقطة الانطلاق في حياتها اليوميّة.
على ضوء ما حدث لها، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل ما رواه دون جوسّاني خلال رياضة الأخويّة لسنة 1982 (والذي نحن كلّنا الآن بصدد قراءته بفضل نشر كتاب "رفقة غريبة" *Una strana compagnia*). يبدو وكأنّه قال ذلك للردّ على الوضع الذي وصفناه، ولمساعدتنا على فهم الخبرة التي نعيشها الآن، والتي تمسّنا في أعماقنا. فالخبرات الخاصّة بكلّ فرد توفّر لنا دائمًا المساعدة لفهم الأشياء الأكثر حسمًا بالنسبة للجميع.
دعونا نستمع إذن إلى دون جوسّاني الذي يقول: "مساء أمس، وخلال اجتماع حاشد في ميلانو، لاحظت أنّه في السنوات الأخيرة، منذ نحو خمسة عشر عامًا [نحن في عام 1982]، خلال كلّ هذه السنوات من مسيرتنا، يبدو وكأنّ حركة شراكة وتحرّر قد بنت على القيم التي جاءنا بها المسيح. لذلك فإنّ كلّ جهد النشاط الجماعيّ والعمليّ والخيريّ والثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ كان الهدف منه بالطبع حشد قوانا والأشياء وفقًا للمثل العليا، وفقًا للتوصيات القيّمة التي أوضحها لنا المسيح. ولكن في البداية [...] لم يكن الأمر كذلك" (رفقة غريبة، دار نشر بور، ميلانو 2017، ص. 88). هذا ما يقوله دون جوسّاني في حديثه عن أوضاع الحركة، لكنّ القول ذاته قد يصدر عن ميراي وعن الصديق صاحب الرسالة: "في البداية لم يكن الأمر كذلك".

وكيف كان الأمر في البداية؟

"في بداية الحركة، في السنوات الأولى، لم نبنِ على القيم التي جاءنا بها المسيح [همّنا الأوّل لم يكن ذلك]، ولكنّنا بنينا [هناك بالطبع بناء] على المسيح، بسذاجة قدر ما تريدون، لكنّ الموضوع المفضّل، والدافع المُقنع كان حدث المسيح [...]. في البداية كنّا نبني، كنّا نحاول أن نبني على أمر ما كان يحدث [كما هو الحال عندما يبدأ شخصان ببناء علاقة، فما يحدث بينهما هو ما يجعلهما يقومان بكلّ شيء]، وليس على القيم المجلوبة، وبالتالي على حتميّة تفسيرنا لها: كنّا نحاول أن نبني على أمر ما كان يحدث وعصف بنا. على الرغم من سذاجة ذلك الموقف وعدم تكافئه الكبير، إلا أنّه كان موقفًا نقيًّا. لذلك، وبسبب تخلّينا عنه تقريبًا، كوننا اتّخذنا موقفًا هو قبل كلّ شيء "ترجمة ثقافيّة" أكثر منه حماسٌ إلى حضور، فإنّنا لا نعرف – بالمعنى الكتابيّ للكلمة – المسيح، ولا نعرف سرّ الله لأننا ليس مألوفًا لنا" (نفس المرجع، ص. 88–89).
وهنا نرى بوضوح أين يحدّد دون جوسّاني التحوّل الحاصل: من الحماس لحضور إلى موقف تعرّفه "ترجمة ثقافيّة" أو سلسلة من الأنشطة، رغم أحقّيّتها – احترسوا! – لأنّ ميراي كانت تقوم بالطبع بأعمال صحيحة تمامًا،

وكذلك الأمر بالنسبة للصديق صاحب الرسالة. لكنّ هذا لا يكفي. ففقرنا وعطشنا أكبر بكثير ممّا نفعله. وما نحتاج إليه لا يمكن أن يجد إجابة كافية ضمن ثقافة أو أخلاقيّات. هذا التحوّل قد يحدث على المستوى الشخصيّ، في العلاقة العاطفيّة ما بين الزوج والزوجة، وبين الأصدقاء، قد يحدث في حياة كلّ شخص أو في حياة الحركة، أمّا نتيجته الرهيبة، التي أشار إليها دون جوسّاني، فهي أنّنا "لا نعرف المسيح" وبالتالي لا تظهر السعادة على وجوهنا. نحن نقوم بكلّ شيء، لكنّ الحماس لحضور المسيح ليس هو الذي يحرّكنا، كما كان الحال في البداية. "في البداية [...] لم يكن الأمر كذلك" (المرجع السابق).

ولكن كيف كان الأمر في البداية؟ جوسّاني قاطعٌ ههنا: "المسيح علّة وجودنا، المسيح سبب إبداعنا [لذلك ليس هناك في أيّ حال من الأحوال غياب للإبداع]، وذلك ليس عبر وساطة التفسير، بل فجأة: ليس هناك أيّ موقف مسيحيّ آخر غيره". ويتابع: "وكلّ الباقي – من حشد الوجود إلى الإبداع – يأتي لاحقًا، لكنّ المسيح كعلّة الوجود وسبب الإبداع هو ما نريد استعادته. كما لو كانت رغبة عاطفيّة في استعادة النقاء الأصليّ لحياة حركتنا، والذي يجهله الكثيرون" (نفس المرجع، ص. 89). آمل أن يتمكّن كلّ واحد من إدراك شغف المسيح بحياتنا في صرخة جوسّاني هذه: هذا النقاء الأصليّ لا بدّ من استعادته. أيّها الأصدقاء، لا بدّ من أن نستعيده نحن اليوم، إذا لم نكن نريد أن ينتهي بنا الأمر، كما سبق ورأينا، إلى وضعٍ يختنق فيه المرء في نهاية المطاف لأن كلّ ما يقوم به لا يملؤه فرحًا.

أتأثّر كيف أنّ نفس الإلحاح لاستعادة هذه النقاء الأصليّ يبرز، من أحشاء الحياة، حتّى لدى أصدقائنا الأصغر سنّا. كتب لي عضو في الشبيبة الطلابيّة يقول: "لقد قضيت عطلة مثاليّة برفقة الحركة، يمكنني أن أقول. فمن عطلة الجماعة إلى الأسفار والأمسيات وصولا إلى لقاء ريميني، وأنا لم أتوقّف. ثم كانت العودة إلى البيت. أعتقد أنّها كانت واحدة من أسوأ عطلاتي. لم يكن الأمر عبارة عن حنين، لم يكن عبارة عن افتقاد، لم يكن عبارة عن فراغ. لقد كان هاوية، وجرحًا كبيرًا وصرخة صاخبة لدرجة أنّني لم أستطع كبحها. وكلّ تلك الفراغات، التي تراكمت خلال فصل الصيف، كانت تداهمني وهنا أدركت شيئا واحدًا: لقد انقضى زمن طويل وأنا لم أصلّ، لا أقصد السلام الملائكيّ أو الصلاة الربّانيّة [أتلوهما شكليًّا]، لا، بل الصلاة الحقيقيّة، الحوار مع الربّ، لحظة أقف فيها [أمامه] وجهًا لوجه، لكي أفهم من أكون. قد أكون فعلت "كلّ شيء" خلال ذلك الوقت، ولكنّني فقدت نفسي. لأن هذا كلّه، بدون المسيح، هو فراغ. في الواقع، وكما إنّه يعطيني كلّ شيء، فإنّه يطلب منّي كلّ شيء. لقد أدركت أنّني كنت أعيش المسيحيّة "من دون" المسيح. وكان أوّل ما وجدته كان حضوره [البداية سيطر عليها سحرُ حضوره]، ولكن مع مرور الوقت وجدت أشياء أخرى كثيرة لدرجة أنّني نسيته. كيف يمكنني أن أعيش حياة الحركة من دون أن أنساه؟ كيف يمكنني الحفاظ على حضوره حيّا فيّ؟ ".

ها هو التحوّل: نسيان المسيح وأنا أقوم بكلّ شيء؛ عيش الحركة ونسيانه. ولكن ها هو، في الوقت نفسه، الأمر الجديد: لقد بدأنا ندرك متى نفتقده.

للبدء في الإجابة على السؤال المطروح يجدر بنا أن نفهم دعوة دون جوساني، لأنّ الحياة لن ترحمنا. "بسبب هذا التغيير [من الحماس للحضور إلى" ترجمة ثقافيّة "كسبب الحياة؛ وهو يقول ذلك في عام 1982!] أصبح من السهل جدّا تعريف خبرتنا كالتزام ناشط وتنظيميّ أو ثقافيّ، يكون أحيانًا شديد الحصريّة، نحدّده ونقوم به بشكل سلطويّ". (رفقة غريبة، مرجع مذكور، ص. 89).

من أجل استرداد الموقف الأصليّ النقيّ، ومن ثمّ الارتباط الذي يجعل كلّ شيء يغنّي، لا بدّ من فهم ما يعنيه جوسّاني بـ "ترجمة ثقافيّة"، طغت مع مرور الوقت على الحماس للحضور. يقول في عام 1991، وإنّه لأمر مثير للإعجاب أن ندرك كيف أنّه كان يرافقنا دومًا، "إنّ أخبث هجوم على قوّة حركتنا يأتي من أولئك الذين يبدؤون كلّ شيء بكلمة ثقافة. إنّما هو العكس، فالثقافة تنبع [من الحدث،] من القرار بالوجود. والثقافة الأوليّة – كما يصفها يوحنا بولس الثاني – هي الأنا المنتمية للحدث. إنّنا نضيّع الوقت عندما لا نركّز على الهدف، وهو الحدث. إنّ استعادة الحدث، والتركيز على الهدف، يعني الإجابة على كلّ الباقي. وهذه هي النقطة: ليس نفورًا من

الثقافة، بل هو هجوم مضادّ حول أصل الثقافة" ("مسؤوليّة مشتركة"، مجلّة *Litterae Comunionis*، العدد 11/1991، ص. 34).

4. المسيحيّة كأيديولوجيا والمسيحيّة كتقليد

وفي عام 1998 عاد دون جوسّاني إلى نفس الموضوع بعبارات أخرى: "لقد أصبح واضحًا هذا العام التمييز ما بين الأيديولوجية والتقليد" (لويجي جوسّاني، "الحدث والمسؤوليّة *Avvenimento e responsabilità*، مجلّة تراتشي، 4/1998، ص. III). وأضاف ذاكرًا اختلافًا آخر، هو الاختلاف ما بين الأيديولوجيا والحدث، حيث يقول: "إنّ نقطة الانطلاق بالنسبة للمسيحيّ هو حدثٌ، في حين أنّ نقطة الانطلاق بالنسبة للآخرين هي انطباع معيّن حول الأشياء" (المرجع السابق)، يصبح فكرة مسبقة ثم يتطوّر إلى خطاب، أي إلى أيديولوجيا. ويكفي أن يجرحنا أحدٌ ما لنرى كيف يحدّد موقفَنا كلّه الانطباعُ الذي يتركه هذا الأمر فينا، فنبني بعدها عليه فكرةً مسبقة ورؤية للأشياء.

أمّا نقطة البداية في كلّ علاقة بالنسبة للمسيحيّ فهي حدثٌ. ماذا يعني ذلك؟ إنّنا نرى ذلك في القصّة التي نعرفها جميعًا عن السجين، الذي لم يتفاعل بعد التفتيش الظالم انطلاقًا من الانطباع، على الرغم من سوئه، الذي خلّفته طريقة التفتيش التي خضع لها، بل انطلاقًا من الحدث الذي دخل حياته والذي أثار فيه موقفًا مختلفًا إزاء الظلم الذي تعرّض له: "كيف للحارس أن يتصرّف بشكل مختلف إن لم يمرّ بنفس التجربة التي مررت أنا بها، أي إن لم يجتح المسيح حياته كما اجتاح حياتي؟". يشرح هذا المثال أمورًا نجد أحيانًا صعوبة في فهمها. إنّ الأمر بسيط، فمن الواضح على الفور أنّ نقطة انطلاقه في علاقته بذلك الحارس لم يفرضها الانطباع الذي كان لديه، وإنّما حدثٌ مسّه وكان يجتاحه في تلك اللحظة أيضًا، فغير ردّة فعله. من غير هذا الحدث، لكان من شأن تشابك الظروف أن يحدّد حصرًا كلّ شيء.

ولكن، ويقول جوسّاني، كي يصبح الحدث نقطة انطلاق لا بدّ من أن يحدث الآن: "إذا كان [...] المصدر، الأساس، المبدأ الأساسيّ لكامل الخبرة الإنسانيّة هو حدثٌ"، فذلك لأنّه يحدث الآن. "هذا الحدث نفهمه لأنّه يحدث الآن" (المرجع السابق). فأنا أفهمه، وأدرك وقعه، وأختبر قوّة تغييره، لأنّه يحدث، يحدث الآن، وليس لأنّني "أعرف ذلك أصلا". فالحدث هو بالتحديد ما لا أعرفه أصلا.

لماذا يثيرني مثال السجين كثيرا؟ لأنّه يوضّح أنّنا نفهم هذا الحدث لأنّه يغيّرنا، وليس لأنّ لديّ التصوّر الصحيح حوله. نحن جميعًا نعرف ما هو الحدث، ومع ذلك فإنّنا غالبًا ما نتفاعل بطريقة مختلفة تمامًا عنه. كيف ذلك؟ لأنّه لا يكفي أن نعرف، كما لا يكفي انطباعنا عن الأشياء. إنّ اختبار ما إذا كان الحدث يقع الآن – أقول اختبار، أي أنّ الأمر لا يتعلّق بنظريّة، بمعرفة مجرّدة، بل بحدث حقيقيّ، يحدث الآن، لي، وأنا أتعرّف إليه، أقبله، وهو يصبح نقطة انطلاق كلّ خطوة من خطواتي – هو كيف أتعاطى مع الناس والأشياء. الاختبار هو الجِدّة التي أتفاجأ بها فيّ، في طريقة تفاعلي. لذلك لا أستطيع أن أتكلّم عن صديقنا السجين من دون التفكير بيسوع. فبطريقة تفاعله يجعل يسوع معاصرًا لنا. بفضل العلاقة التي كان يعيشها مع الآب، استطاع يسوع أن يقول عن أولئك الذين صلبوه وأهانوه: "يا أبتاه اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا 23، 34). كان يمكنه أن ينظر بهذا الشكل إلى جلاديه فقط بسبب ذلك الارتباط، بسبب إلفته الفريدة مع الآب. إنّ الموقف الذي يشهد به المسيح يعبّر عن كلّ الجِدّة الثقافيّة التي جلبها إلى العالم، ولفهمها لا بدّ من الاعتراف بما كان يحدث في صميم قلب يسوع.

وهذا ما يقودنا إلى السؤال التالي: "كيف يمرّ الحدث، كيف يُعطى لمن يأتي الآن؟". ويجيب دون جوسّاني: "إذا كان حدثًا يتكرّر، فإنّه يتكرّر كلّ يوم". فالحدث يتواصل في حدوثه. والمسيحيّة حدث وهو يتنقل من شخص إلى شخص كحدث. إنّها لا تتواصل كمجموعة من التعاليم أو الأحكام، ولا يمكن اختزالها بتصوّر أو بثقافة. وهنا كلّ شيء على المحكّ. وإلا لاختزلنا المسيحيّة إلى أيديولوجيا. وهو انتقاص قد يهيمن حتّى على "الطريقة التي نفهم

بها الكثير من التعليم الدينيّ المسيحيّ"، وحتّى الطريقة التي نقوم بها بمدرسة الجماعة، وحتّى "الطريقة التي ننظر بها إلى المسيحيّة والكنيسة" (جوسّاني، "الحدث والمسؤوليّة،" مرجع مذكور، ص. III). ممّ نتعرّف إلى المسيحيّة المختزَلة؟ من كونها لا تغيّرنا.
هذا هو الإسهام الذي قدّمه دون جوسّاني لحياة الكنيسة، كما قال الكردينال راتسينغر في جنازته: "وحده المسيح يعطي معنى لكلّ شيء في حياتنا؛ لقد حافظ دون جوسّاني دائمًا على نظرةٍ ثابتة من حياته وقلبه إلى المسيح. وفهم بهذه الطريقة أنّ المسيحيّة ليست نظامًا فكريًّا، أو حزمة من العقائد، أو أخلاقيّات، بل أنّ المسيحيّة [...] هي حدث" (يوسف راتسينغر، عظة في جنازة دون جوسّاني، ميلانو، 24 شباط/فبراير 2005 ، في كتاب سافورانا، حياة دون جوسّاني، مرجع مذكور، ص. 1188). ولكن قبله كان يوحنّا بولس الثاني قد كتب عن ذلك في عام 2002، في رسالته بمناسبة الذكرى العشرين للأخويّة حيث قال: "إنّ المسيحيّة، وقبل أن تكون مجموعة من العقائد أو قاعدة [...] هي [...]"حدوث" لقاء. هذا هو الحدس والخبرة التي نقلها في السنوات الأخيرة للكثيرين الذين انضمّوا إلى الحركة" (يوحنّا بولس الثاني، رسالة إلى دون جوسّاني، 11 فبراير 2002، في المرجع نفسه، ص. 1095).
هذا الحدس وهذه الخبرة لا بدّ من استعادتهما، إذا كنّا لا نريد أن ينتهي بنا المطاف إلى الاختناق بسبب اختزالنا لما بين أيدينا. في هذه الحالة لن تكون الحركة كما كانت في طبيعتها الأصليّة، ولو استمررنا في قول أشياء كثيرة والقيام بها.
يدعونا دون جوسّاني للقيام بخطوة في اتّجاه هذه الاستعادة: "هذا "العبور" للحدث بصفته كلّ ما في الحياة، بصفته تفسيرًا كاملا للحياة والتاريخ، يسمّى التقليد". دعونا نولي اهتمامًا بكيفيّة وصفه له، كي يمنعنا من اختزاله إلى شيء ما نعرفه أصلا: "التقليد هو ذكرى تستمرّ [ويستدرك على الفور]، بل هو حدث يستمرّ كذكرى، في الذاكرة. إنّه ليس حدثًا يستمرّ لكي تصفه الذاكرة، فالذاكرة هي التي يخترقها [يا للهول!] شيءٌ أكبر، وأقوى [كيلا تتحجّر في عقيدة]، فتصبح علامة على استمراريّة تاريخيّة". وهذا ما نراه في تلميذي عمّاوس، فقط عندما خرق حدثُ المسيح القائم ذاكرةَ وقائع حياة يسوع، التي كانا يعرفانها جيّدًا ويحدّثان عنها رفيقهما الجديد المجهول، تغيّر التلميذان وفهما. ويتابع دون جوسّاني قائلا: "إمّا أن نفهم الذاكرة بصورة اختزاليّة بمعناها الطبيعيّ [...] – كذكرى من الماضي، وذكرى مهيبة، وديّة، ظريفة، حسنة، جميلة، ممّا يجعل القلب أكثر إنسانيّة بمجرّد التفكير – وإمّا إنّ الذاكرة يمكنها أن تكون كلّ شيء!"، وهي كلّ شيء. وهذا يعني أنّ الذاكرة هي ذلك الحدث الذي يحدث باستمرار، الذي لا ننتجه نحن، الذي لا يتوقّف على مبادرتنا أو سلطتنا. "إنّ الموقف الأوّل [الذي يعرّف الذاكرة بالذكرى] يتمثّل في اختزالنا بمبدإ الطريقة التي يرى فيها الإنسان العالم، ويشعر ويتعاطى الحياة (التصوّر المسبق)" (جوسّاني، "الحدث والمسؤوليّة"، مرجع مذكور، ص. III–IV).
ولكن – انتبهوا لما يلي – "إذا أضحت المسيحيّة على هذه الحال، أي إذا اعتُبرت تصوّرًا وعقيدة وطريقة للفهم والتعامل، فإنّها تصبح هي أيضًا أيديولوجيا. هذا ما اعترضنا عليه بخصوص وضع الكنيسة في العصور الحديثة، فطريقة فهم الأخلاق لم تكن نابعة من المسيح، من حدث المسيح، بل كنتاج مؤثّر لتفسير حول الحياة، كان القلب يتعاطف وإيّاه، وموثّق بشكل نقديّ (يُحاوَل ذلك، على الأقلّ)، بحيث تمّ نسيان الأنطولوجيا، سُلبت عمليًّا حياتُها devitalizzata [من المهمّ جدًّا استخدامُه لهذه الكلمة]، كما عندما ينزعون العصب من الأسنان" (المرجع نفسه، ص. IV).
ما الذي "سُلبت حياته"؟ الأنطولوجيا الجديدة، أي واقع أنّ المسيحيّة هي حدث ("الأنطولوجيا – أي إعلان أنّ الله صار إنسانًا، وأنّ هذا الحدث، بالمعنى التاريخيّ للمصطلح، يستمرّ في التاريخ لأنّ ذاك الإنسان قد قام من الموت": وها أنا معكم كلّ الأيّام حتى انقضاء الدهر"؛ الإنسان ومصيره *L'uomo e il suo destino*، على الدرب، دار نشر ماريتي 1820، جنوى 1999، ص. 71). لا أعني أنّ هذه الأنطولوجيا - كما رأينا في الشهادات التي ذكرتُها في البداية - "مرفوضة"، بل هي منسيّة، وتُعتبر مفترَضة، أي أنّها لم تعد نقطة الانطلاق

للعلاقة مع كلّ الواقع، كما قالت ميراي. وهكذا تفرغ العلاقة، لأنّها ليست قادرة على الصمود بنفسها. أن تُسلب حياة الأنطولوجيا يعني أنّ الطريقة التي ندرك بها الأشياء ونتعامل معها لم يعُد مصدرُها الحدث "هل تفهمون ما كنت أعنيه – يتابع دون جوسّاني – عندما تحدّثت عن السنوات العشر التالية لعام 1968، عندما سيطرت بيننا فكرة عن الثقافة، ليست كونها مستمَدّة من المسيح، بل أن يعترف لنا العالم بثقافة كانت لدينا؟ "(جوسّاني، "الحدث والمسؤوليّة"، مرجع مذكور، ص. VII).

وإذا كنّا لا نفهم هذا الأمر، إذا لم نستعِد الأصل، فلا جهد سيكون قادرًا على أن يُعيد لنا الملءَ الذي بمقدور حضور الربّ وحده أن يعطيه لنا، أن يجعلنا روّاد ثقافة جديدة، لأنّ حدثه الحاليّ وحده بإمكانه أن يخلق تصوّرًا حقيقيًّا للأشياء. مثل هذا التصوّر يجب أن يولد باستمرار من المصدر الذي خلقه، ويستعين بمراجع من خلال تكرار حدوث شهادة حيّة، يجب أن يصبح مرئيًّا في الخبرة العمليّة لشخصٍ ما. بهذه الطريقة فقط يمكن أن ينتقل من شخص لآخر. لقد أخبروني بزفاف اثنين من أصدقائنا، حيث سأل زملاء العروس باستغراب قائلين لها: "ما هذا، أتتزوّجين في هذه السنّ المبكّرة؟ ولبقيّة حياتك؟". ثم يشاركون في حفل الزواج ويُصابون بالاندهاش، لدرجة أنّهم حدّثوها حال عودتها من شهر العسل عن روعة يوم زفافها. التصوّر الجديد يولّده باستمرار حدثٌ حاليّ وهو "ينتقل" عبر حدوثه.

لقد قال فون بالتازار خلال الرياضة الروحيّة التي وعظ فيها مع دون جوسّاني في سويسرا في أوائل عام 1971، إنّ التقليد، الـ traditio، أي ما نقله الله للبشر، هو "وهْبُ الابن نفسه من خلال الآب لخلاص العالم" (هانس أورس فون بالتازار ولويجي جوسّاني، التزام المسيحيّ في العالم *L'impegno del cristiano nel mondo*، دار ياكا بوك، ميلانو 2017، ص. 89). هذا هو التقليد: وَهْبُ المسيح ذاته للعالم من خلال الآب، وفق تدبير الآب. وهذا الوهب للذات – التقليد – لا يمكن اختزاله إلى تصوّر، إلى عقيدة. "إنّ حضور الحدث الأصليّ، أن يتمّ اليوم الحدث الأصليّ، الذي جعل نفسه حاضرًا في كلّ يوم من أيّام الزمن حتّى الآن، يسمّى التقليد: وبالتالي فإنّه يشكّل تكرار الحدث البدائيّ، الحدث الأصليّ، كلّ يوم" (جوسّاني، الإنسان ومصيره، على الدرب، مرجع مذكور، ص. 66).

إنّ المسيحية المختزَلة إلى أيديولوجيا "في غنى" عن الحدث، ففي وسطها لم يعُد هناك الحدث، بل نظام من الأفكار – رغم كونها مستمدّة من هذا الحدث – غير المتّصلة بالمصدر. وتبقى هناك العواقب الثقافيّة والأخلاقيّة، المقترَحة لذاتها، في نوع من أنواع الاكتفاء الذاتيّ، والتي تبدأ بالتالي مسيرة تشوّه حتميّة. هذا ما يتعيّن أن نفهمه جيّدًا.

5. الإغراء التنويريّ "خاصّتنا"

عند هذه النقطة يمكننا أن نفهم ما يقصده دون جوسّاني عندما يقول هذه الأشياء: بتلك العقليّة التي تحوّل كلّ شيء إلى عقيدة. إنّها إغراء التنوير، كما قال لنا البابا بينديكتوس السادس عشر، الذي كان يعتقد بأنّه ينقذ الحقائق العظيمة للمسيحيّة، والقيم المسيحيّة، وكلّ ما جاءت به المسيحيّة، عبر فكّ ترابطها بالحدث الذي جعلها حيّة وما زال باستمرار. ونحن نرى ذلك في كانط عندما يؤكّد قائلا: "ومن الممكن تمامًا الاعتقاد بأنّه إذا لم يكن الإنجيل قد علّم أوّلا القوانين الأخلاقيّة العالميّة [القيم] في نقائها الكامل، فإنّ العقل لم يكن ليعرفها على أكمل وجهٍ، على الرغم من أنّ كلّ شخص الآن، وكونها أصبحت موجودة، يمكنه أن يقتنع صوابها وصلاحيّتها من خلال العقل وحده" (إيمانويل كانط، رسالة إلى جاكوبي، 30 آب/أغسطس 1789، في قضايا حدوديّة *Questioni di confine*، دار ماريتي 1820، جنوى 1990، ص 105). ففي عصر التنوير كان يُعتقد، كما هو موثّق عند كانط، بأنّ كلّ هذا من شأنه أن يستمرّ لأنّ العقل أصبح قادرًا على الاعتراف به، لكنّ تلك المحاولة أثبتت فشلها مع مرور الوقت. والآن يمكننا أن نفهم ذلك، لأنّه يحدث فينا وبيننا: فإذا انفصلنا عن حدث المسيح، عن حدث

الموهبة الحيّ، فإنّنا نشوّش رؤيتنا ولا ينفعنا ما نقوم به في شيء.
إنّنا سنلقى نفس مصير التنوير، رغمًا عنّا، إن لم نفهم كيف تنتقل المسيحيّة، كيف تبقى الموهبة. ومع كلّ النصوص التي تركها دون جوسّاني في متناولنا، يمكننا أن نفشل. هذا ما على المحكّ. والمناقشات التي تدور بيننا وسَيلُ الكلمات التي نغدقها أحيانًا على أنفسنا لا تحلّ المشكلة. وكما شهدنا انهيار كلّ شيء من حولنا، كذلك قد نشهد انهيار أنفسنا.
كيف يمكننا تجنّب خطر الوقوع في تجربة الاعتقاد ("التنويريّة") بأنّ نصوص الإنجيل أو نصوص جوسّاني كافية؟ كيف يمكننا أن نتجنّب تحجّر كلّ شيء وتحوّله إلى عقيدة مسلوبة الحياة؟ فلنستمع مباشرة إلى جوسّاني، لأنّه أخبرنا بكلّ ما نحتاجه في سيرنا: "لا يحدّد الحدث شيئًا وقع وبدأ به كلّ شيء فحسب، بل ما يوقظ الحاضر، ما يحدّد الحاضر، ما يعطي محتوًى للحاضر، ما يجعل الحاضر ممكنًا. وما نعرفه أو ما نملكه يصبح خبرة إذا كان ما نعرفه أو ما نملكه شيئًا يُعطى لنا الآن: هناك يدٌ تقدّمه لنا الآن، هناك وجه يتقدّم إلى الأمام الآن، هناك دمٌ يتدفّق الآن، هناك قيامة تحدث الآن. خارج هذا "الآن" لا يوجد شيء! الأنا خاصّتنا لا يحرّكها، لا تتأثّر، أي لا تتغيّر إلا أمرٌ معاصر: حدث. والمسيح هو أمرٌ يحدث لي" (راجع الأرشيف التاريخيّ لجمعيّة Memores Domini الكنسيّة، وثيقة مستنسخة بعنوان "التفاني 1992 ريميني، 2–4 تشرين الأوّل/أكتوبر 1992").
ولهذا السبب قال في عام 1998 أيضًا: "إنّها مسألة تحوّل" conversione. ولكن تحوّل إلى ماذا، إلى من؟ ولتجنّب إساءة فهمه، يوضح على الفور معنى دعوته: "إن لم يكن هناك تحوّل من جانبك [من جانب كلّ واحد منّا]، ليس نحوي [يشير جوسّاني إلى نفسه]، بل نحو يسوع الذي يمسك بك بواسطة يدي؛ إذا كان وعي خطابنا لا يولّد تحوّلا فيك، فليست هناك من مسؤوليّة"، ليس هناك من جواب. "لتوصيل حياة في الموهبة التي أعطيت لنا، يجب علينا أن نعيش التحوّل: ليس نحوي [يعود ويكرّر]، ولكن نحو ما قيل [وأعطي] لي" (جوسّاني، "الحدث والمسؤوليّة"، مرجع مذكور، ص. VII–VIII).
وهنا تبدو كامل محبّة جوسّاني لنا، فلكي يجعلنا نفهم الأشياء التي يقولها لا يصرّ على تفسير معيّن، بل يقترح علينا طريقًا: "أودّ أن أجعلكم تقومون بالمسيرة التي نشأت بفضلها في داخلي كلُّ الأشياء التي أقولها" (المرجع نفسه، ص. VIII). لذلك، ولتجنّب تطويع ما يقوله ليلائم ما في ذهننا، ليلائم تفسيرنا، علينا أن نتعلّم التماهي مع الطريقة التي وُلدت فيها الأشياء في نفس دون جوسّاني، بحيث يمكنها أيضًا أن تولد فينا اليوم – كما يطلب عضو الشبيبة الطلابيّة. فقط عندما تحدث من جديد الأشياءُ التي قالها لنا، يمكننا فهمها دون الانتقاص من شأنها. إذن، كيف يمكن أن تحدث اليوم؟ من أين تنشأ؟ كيف يمكننا أن نقوم اليوم من جديد بالمسيرة التي نشأت بفضلها في داخله تلك الأشياء؟ أين تحدث اليوم الأشياء التي كان يقولها لنا؟

6. عصرانيّة المسيح، المصدر الدائم لأبعاد الخبرة المسيحيّة

إنّ "معرفة جديدة تستدعي [على عكس ما كان يعتقد كانط] [...] أن تكون معاصرًا للحدث الذي يولّدها ويدعمها باستمرار". وبالعودة إلى كلمات دافيدي، إنّها تستدعي الارتباط الكليّ. لأنّ كلّ شيء يُعطى لنا. إنّ الوسيلة لعيش ما نقوله ليست "أعرف ذلك من قبلُ والآن سأتدبّر الأمر بنفسي بفضل ذكائي وجهدي". لا يمكننا أن نعتب على جوسّاني وندّعي أنّه لم يحذّرنا، فالمعرفة الجديدة لا تترسّخ فينا إلا إذا كنّا "في معاصرة مع الحدث الذي يولّدها ويدعمها باستمرار". و"بما أنّ هذا الأصل ليس فكرة بل مكانًا، وواقعًا حيًّا، فإنّ الحكم الجديد لن يكون ممكنًا إلا في علاقة مستمرّة بهذا الواقع [الحيّ]، أي مع الرفقة الإنسانيّة التي تطيل في الزمن الحدث الأوّليّ" (جوسّاني وألبيرتو وبراديس، خلق آثار في تاريخ العالم *Generare tracce nella storia del mondo*، دار ريتسولي، ميلانو 1998، ص. 75).
لم يكفّ دون جوسّاني أبدًا عن إشارته لنا بالطريق: "إنّ الأشياء التي نفهمها، في الواقع، لا نفهمها لأنّنا نجلس

حول طاولة ونضع برنامجًا دراسيًّا لفهمها، ولا نفهمها نتيجة مشروعٍ تأمّليّ ["الآن لديّ النصوص، وسأتفحّصها بنفسي"]؛ إنّنا نفهمها إذا تعلّقنا كالأطفال بتاريخ الله في حياتنا، بالتاريخ الذي يريد الله من خلاله أن يقتحم تمامًا جميع أبوابنا لأنّنا منه صُنعنا" (لويجي جوسّاني، رفقة غريبة، مرجع مذكور، ص. 140). والمسيرة بسيطة، كما تكتب لي هذه الصديقة: "ألاحظ أنّني كلّما أخذتُ على محمل الجدّ فرضيّة العمل التي تقترحها عليّ الحركة، رأيتُ الأشياء بشكل مختلف، أعمق، وأصحّ".

إمّا إله أفكارنا وإمّا إله التاريخ: هذا هو الخيار الذي يواجهه كلّ واحد منّا. إنّها ليست مشكلة مهارةٍ أكبر أو أقلّ، لأنّ المهارة أو قدرتنا على الأداء ليست بكافية على هذا المستوى من المسألة. إنّها مشكلة طرح، مشكلة نهج. لقد ذكرنا ذلك في مناسبات عديدة هذا العام، بالإشارة إلى شخصيّة "المجهول الاسم". وذكرناه في الآونة الأخيرة عبر صيغة دون جوسّاني الثمينة حول "التاريخ الفريد" الذي لن أكلّ من تكراره: إنّه "تاريخ فريد [...] حجر الزاوية في التصوّر المسيحيّ للإنسان، ولأخلاقه، في علاقته بالله، بالحياة، بالعالم "(جوسّاني وألبيرتو وبراديس، خلق آثار في تاريخ العالم، مرجع مذكور، ص. 82).

هذا هو التحدّي الكبير الذي يواجهه كلّ واحد منّا. كما كتب لي صديق ترك الحركة وظلّ بعيدًا عنها لمدّة ثلاثين عامًا. إن لم تكونوا قد قرأتموها بعد، يمكنكم مراجعة رسالته في عدد أيلول/سبتمبر من مجلّة تراتشي. فبعد أن سرد قصّة حياته، قال: "همومٌ كثيرة تنهال علينا. ويصبح الاستيقاظ في الصباح أصعب، وحتى الأقراص "المعجزة" ضدّ الاكتئاب ليس لها أيّ تأثير. يسحقك ثقل الأشياء التي تمرّ. وتبدأ بالاعتقاد بأنّ جمال الحياة قد ولّى وأصبح خلفك ولم يبق لك الكثير. والآن، لم يعد جهدي، أدائي، [...] كافيًا. عند هذا الحدّ، تصبح الحياة بسيطة: فإمّا أنّ المسيح يبدأ اسمه بحرف صغير minuscola، أي إنّه إلهي أنا، الذي استخدمه طوع إرادتي وذكائي، وعندها أكون كمن يضحك على نفسه، وإمّا أنّ الله هو إله التاريخ [...]. إنّنا لم نعُد [يتحدّث عن نفسه وعن زوجته] [...] لأنّنا جيّدون. لقد عدنا لأنّ أحدًا ما أرادنا من جديد في المنزل" ("العودة إلى المنزل بعد ثلاثين عامًا"، تراتشي، العدد 8/2017، ص. 9). لقد عادا لأنّ البداية حدثت من جديد، عبر اللقاء بأحدنا، في المكان والواقع الحيّ لشعبنا، ونحن نرى ذلك باستمرار.

لهذا أعود دائمًا إلى شخصيّة "المجهول الاسم"، لأنّ معرفته الجديدة حول نفسه، وحول لوتشيا، وحول الحياة وكلّ الواقع الذي أحاط به، إنّما نشأت من حدث العلاقة بالكردينال فيديريغو. ولو لم يقع له ذلك الحدث، الذي جعله فقيرًا، لما كفاه كلّ الباقي. لقد كان يدرك قبلها بوضوح أنّه يتسبّب بالأذى وكان يشعر بالطبع بتأنيب الضمير. كان يعرف ذلك، ولو إلى حدّ ما، ولكن لم يكن ذلك كافيًا بالنسبة إليه للخروج من وضعه.

بإيجاز، يذكّرنا "المجهول" بماهيّة موقف النقاء الذي يُمنح لنا من جديد في اللقاء بالمسيح، كما يذكّرنا بأنّ نهج الأصل، نهج البداية، هو نفسه نهج المتابعة: فالمسيحيّة لا تحدث، إذا جاز التعبير، مرّة واحدة وإلى الأبد، وبعد ذلك فأنا "أعرف" ويصبح تطوّرُها في متناولي، بل هي شيءٌ يُعطى لي دائمًا من جديد، وهي نظرة تُمنح لي الآن.

هاكم، إذن، كيف يصف دون جوسّاني الخطوة التي يتعيّن اتّخاذها: "إنّ الطريقة التي ينشأ فيها معيارُ الحكم [...] يُشار إليها بكلمة "نظرة". بمعنى أنّ علينا البقاء أمام الحدث الذي لقيناه دون سحب ولاء نظرتنا في مرحلةٍ ما [لأنّنا عندما نتوقّف عن النظر إلى وجهه نغرق، كما حدث لبطرس] [...]. إنّ ولاء النظرة للحدث هو الذي يسمح بخلق معيار الحكم الجديد فينا، وبعدم تعرّضنا لمعايير "العالم" " (جوسّاني وألبيرتو وبراديس، خلق آثار في تاريخ العالم، مرجع مذكور، ص. 76). وإلا فإنّنا سوف نظنّ بأنّنا نبني ثقافة جديدة، لكنّنا لا نقوم في الواقع إلا بتكرار ما يقوله العالم.

ممَّ نرى إذا كان الحدث حاضرًا في حياتنا؟ إذا جعلنا أكثر فقرًا. إذا غادرنا اليوم هذا المكان ونحن أكثر فقرًا، وأكثر رغبة – مثل "المجهول الاسم" – بأن نقف هناك، بعنادٍ، أمام باب السرّ، باب السرّ المتجسّد، المعاصر، الذي يحدث الآن من خلال وجوه رفقتنا، والذي مرّ بالنسبة له من خلال وجه الكردينال فيديريغو.

هذا هو النضج الذي يسمح لنا بعدم تفويت الأصل: الوعي الواضح بشكل متزايد بأنّ من يخلّصنا إنّما هو "آخر"، أي وعي ارتباطنا، وصحوةُ ذلك النقاء فينا، ذلك الفقر الأقصى الذي يخلقه حدث المسيح فينا والذي يدعونا إليه البابا في الرسالة التي وجّهها إلينا في ختام يوبيل الرحمة (لقد تكلّمنا عنها في رياضة الأخويّة). ذلك الفقر بالروح، الذي يجعلنا رهن إشارة الربّ، هو علامة حدوثه، وعلامة أن الحدث يحدث الآن لي. كما يؤكّد هذا الشخص الذي يكتب لي قائلا: "منذ أمس وأنا أحمل في يدي بطاقة حضور لقاء بداية العام ... يا للتحدّي provocazione الذي يحويه العنوان: "في البداية لم يكن الأمر كذلك"، ففي الحال بدأت أتساءل عن الموقع الذي يحتلّه المسيح في أيّامي، ليس ابتداءً من الغد، بل من الآن طالما أنّ يومًا آخر يتيح لي فرصة الاعتراف والشهادة".

"أصدقائي – لم أستخدم قطّ كلمة "أصدقاء" بهذا الوعي كما أستخدمتها الآن [وأعود وأكرّرها أنا أيضًا بنفس الوعي: "أصدقائي"] – علينا ان نمضي قدمًا في هذا الطريق، أنتم الموجودين هنا جميعًا، إنّكم هنا لأنّكم دُعيتم إلى هذا الطريق. ستكنّون مزيدًا من الحبّ لزوجاتكم، ومزيدًا من الحبّ لأصدقائكم، ومزيدًا من الحبّ لأطفالكم، وسوف تعرفون معنى الرأفة، وتعرفون معنى المغفرة، وتعرفون معنى التضحية من أجل البناء، من أجل تحسين حال الآخرين، وتعرفون كيف تتحلّون بالإنسانيّة، سوف تكونون أكثر إنسانيّة. "من يتبعني يرث الحياة الأبديّة"، التي هي الربّ، والعلاقة به" (لويجي جوسّاني، على الدرب 1998–1992، *In cammino*، دار نشر بور، ميلانو، 2014، ص. 226–227). لا يحيد دون جوسّاني قيد أنملة! فالحياة الأبديّة هي المسيح، والخلاص هو المسيح. ولا يمكننا أن نرى العلاقات تزهر، وأن نبني وننفتح على الاحتياجات ونكون أكثر فأكثر إنسانيّة، إلا إذا بقينا متعلّقين به على هذا الطريق. في العلاقة معه يمكننا أن نختبر المئة ضعف: "مئة ضعف تزهر الإنسانيّة التي لديكم، مئة ضعف تزهر مقارنة بغيركم، ولن يقوى شيء على إفسادها، ولا على إقلاقها وإخافتها، ولن تخشون عندها من أيّ شيء" (المرجع نفسه، ص. 227)، في حين يتفسّخ كلّ شيء ما إن ننفصل عنه.

يستمرّ حدث المسيح عبر التاريخ، ويجعل نفسه مرئيًّا اليوم، وفق الطريقة التي اختارها هو: "رفقتنا هي المكان الذي يوجد فيها هذا الحضور، ويمكن الاعتراف به والوقوع في حبّه بسهولة أكبر، حيث يغفر هذا الحضور كلّ شيء، وبموجب هذا الغفران لا يعود بإمكاننا أن نبقى مكتوفي الأيدي ونريد أن نقوم بعمل خير، بالخير، الخير لنا وللآخرين" (المرجع نفسه، ص. 228). وهكذا تتدفّق أبعاد الخبرة المسيحيّة (الثقافة والمحبّة والرسالة) من الأصل الذي هو الإيمان. فهذه الأبعاد ليست منفصلة عن بعضها البعض (كما كان كانط يرغب)، بل هي متّحدة من الأصل، وتعبيرٌ عن الأصل. لذلك فإنّني أتشوّق لرؤية شكل الإبداع الذي سينشأ عن هذه الاستعادة للبداية، إذا ما استجبنا دعوة دون جوسّاني، وكيفيّة تلبيتنا للحاجة التي سنجدها في بيئاتنا، من أجل خير الجميع. من يدري إيّ جِدّة حياةٍ سوف نتفاجأ برؤيتها، كما حدث هذا الصيف في العديد من العطلات (وهذا ما قاله دافيدي)، أو كما يحدث بين الطلبة الجامعيّين، كما ستقرؤون في مجلة تراتشي!

وما هو شكل "كوننا من أجل" essere per؟ إنّه الشهادة. "إنّ مهمّة الحياة [حياتنا] هي الشهادة لهذا الحضور والاعتراف به والشهادة له" (المرجع نفسه) – فليس بين أيدينا من كنزٍ أكبرَ من هذا الحضور – وذلك ليس بطريقة شكليّة، ولا كأمر سبق وعرفناه، مسلوب الحياة، بل كالإجابة الأكثر ملاءمة لمتطلّبات الحياة. لقد نشأت الحركة لكي تجعل هذه الإجابة قابلة للخبرة، والعلامة الأوضح لهذه الخبرة هي الفرح.

وأختتم بالدعوة التي يوجّهها إلينا دون جوسّاني: "إنّ حدث المسيح له علاقة بوقتنا الراهن، لدرجة أنّه يغيّره بكلّ فعّال، بشكل أكثر فعاليّة من جميع الموارد الاجتماعيّة التي يمكن تصوّرها، لأنّ كلمة "فرح" أو "غبطة" [التي كثيرًا ما نفتقدها]، لا يمكن أن تكون الهدف الذي يوفّره أيّ مورد اجتماعيّ ولو تصوّرناه مجدّدًا [ليست نتيجة شيء نفعله نحن]. إنّ الواجب الأسمى لمن لديه إيمان، لرائد التاريخ في هذا الشعب الجديد، هو بالتحديد أن يبيّن ويشهد لحقيقة حدث المسيح من خلال فرحٍ يدوم حتّى في أسوأ ظروف الحياة، كونَ الفرح هو الدليل الفريد والهائل على حدوث تغيير، لدرجة الكشف عن أنطولوجيا جديدة" (جوسّاني وألبيرتو وبراديس، خلق آثار في

تاريخ العالم، مرجع مذكور، ص. 179).
ليس هناك من تحدّ أكبر من هذا، ليست هناك من مغامرة أكثر إثارة من هذه، وبخاصّة في هذه اللحظة التاريخيّة. ومن ثمّ لا شيء أغلى ومرغوب فيه من أن تحدث فينا نظرة إنسان حرّ، على حدّ قول شارل بيغي. ليست هناك اليوم أيّة فكرة أو عادة بإمكانها أن تدعم المسيرة. فكلّ شيء يقوم على الحرّيّة. فلنسأل الربّ نظرة الإنسان الحرّ هذه، الذي يريد أن ينتمي إلى المسيح للسبب الوحيد الذي يمكن أن يقرّر المرء أن ينتمي إليه اليوم: لأنّه وحده من يستجيب لتطلّعات قلوبنا.
لذلك دعونا نأمل بأن نكون مخلصين لهذا الوعي للسرّ الحاضر الذي قدّم لنا دون جوسّاني شهادة عنه حتّى آخر أيّامه، والذي يذكّرنا به اليوم باستمرار البابا فرنسيس في دعوته للعودة إلى الأساسيّات. ليست طاقاتنا أو قدراتنا هي التي ستوقظ شيئًا جديدًا وحقيقيًّا وكاملا حقًّا، بل الربّ وحده يمكنه أن يكون صانعَه، إذا ما شاء أن يستخدم بعدُ الـ "نعم" الصغيرة واليوميّة خاصّتنا لمواصلة خلق هذا الشعب كعلامة أمل للجميع.

***

أغتنم مناسبة لقاء بداية السنة لتسليط الضوء على أهمّيّة أن نحرص في جماعاتنا على بعض البادرات والوسائل الأساسيّة في التربية وحياة الحركة. واليوم أؤكّد على أمرين، من بين أمور أخرى.

الصلاة: ينبغي الاعتراف (كما ذكر عضو الشبيبة الطلابيّة) بما يجعلنا نبدأ من جديد، بما يمكن الربّ القيام به، إذا ما أفردنا وقتًا لهذه العلاقة الفريدة التي تجدّدنا باستمرار انطلاقًا من الوقائع التي تحدث في حياتنا. لأنّ الصلاة المسيحيّة ما هي إلا ذكرى. بدءًا من الإفخارستيا، التي هي أقوى فعل للذاكرة بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، أي كحدثٍ يحدث في الوقت الذي نحتفل فيه به. ولكن كي يشقّ هذا الأمر طريقه فينا لا بدّ من أن نعتاد أكثر فأكثر على الصمت، كي نعطي أنفسنا الوقت للرجوع إلى أشياء معيّنة، وإلا تفشّت العقليّة السائدة. فبدون الصمت، لا إمكانيّة له في الدخول إلى حياتنا. كانت العذراء تحفظ كلّ شيء في قلبها، وأحيانًا كثيرة يكون قلبنا مليئًا بكلّ شيء ما عداه هو، كما نرى. ولهذا السبب لا ينمو الحماس لحضوره. إذا لم يكن لدينا الوقت لهذه العلاقة، لهذه الذكرى، فكلّ الباقي سيتحمّل التبعات، وسوف نشعر بالاختناق. يمكننا أن نقوم بكلّ شيء، من دون أن يظهر الفرح على وجوهنا. لأنّ الربّ غائب. إذ ليس ما نقوم به هو ما يجلب لنا الفرح، بل هي العلاقة الفريدة بالمسيح، التي تمتدّ لتشمل اليوم كلّه. إنّها ليست بديلا عن العمل، فالمهمّ هو أن تخترق هذه العلاقة كلّ ما نقوم به؛ وإلا فلن يجعل كلُّ ما نقوم به حياتنا كاملة ومليئة بالفرح.

الترتيل والغناء: يجب أن ينمو ولعُنا بالترتيل. فالرغبة بالترتيل معًا بشكل أفضل فأفضل إنّما هو إحساسٌ قويّ يجب ألا نفقده. كلّنا ندرك مدى المساعدة التي يوفّرها الترتيل معًا. لقد جعلنا دون جوسّاني نفتن بطريقة ترتيل معًا لدرجة أنّه عندما يرتّل كلّ شخص على هواه من أجل إبراز مواهبه يصبح الأمر لا يطاق على الإطلاق. وإذا فقدنا هذا الإحساس، فإنّنا نفقد شيئًا أساسيًّا. لذلك علينا أن نفرد الوقت للعناية بالترتيل وبالتمارين على الغناء في جماعاتنا حتّى نتمكّن من إيصال طريقة معيّنة في الترتيل.